المشهد الثقافي

تفاقم الأزمات والجائحة أقفلا المسارح والفضاءات 2020... عام انهيار الثقافة في لبنان؟

كانت 2020 سنة سوداء على لبنان اقتصاديا وسياسيا وصحيا واجتماعيا. هذه المشهدية انسحبت حكما على عالم الثقافة الذي شهد توقفا واقفالا للمسارح والفضاءات. فهل يمكن القول ان الانهيار الذي يعيشه البلد اتى على الثقافة والابداع؟

اذا ما عدنا الى الوراء، تحديدا الى حقبتي الستينات والسبعينات، فاننا نرى المثال الاسطع عن كيف يمكن الثقافة ان تكون مرآة المدينة وروحها، لكن ايضا نبضها الثوري التقدمي المنفتح على الاختبار والتجريب والتعددية وكسر الحدود الى افق اوسع وارحب، والى مجتمع مثالي منشود يبنى في حضن الابداع اولا.

ما ابعدنا اليوم عن تلك الثورة الثقافية والفنية والفكرية التي جاءت بها المختبرات الشعرية والفنية الحديثة الى التربة اللبنانية، بدءا من مجلة "شعر" مع عمالقتها من شوقي ابي شقرا وانسي الحاج وادونيس ويوسف الخال، الى فنون الفرجة مع روجيه عساف وريمون جبارة وانطوان ولطيفة ملتقى ومنير ابودبس وغيرهم. كانت الاعمال الابداعية حمالة رسالة ومشاريع تتوق الى بناء مجتمع مثالي شيدته اولا مخيلة الثقافة والابداع والفكر. لكن ها نحن اليوم مجردون من اي مخيلة، منشغلون في كيفية تأمين قوتنا ولقمتنا وسط ازمات وتحديات صحية واقتصادية ومالية وسياسية واجتماعية لا تنتهي... حتى يمكن القول بسهولة ان 2020 كان عاما اسود على المشهد الثقافي في بيروت الذي تأثر حكما بكل هذه المصائب.

عوامل كثيرة تضافرت للوصول الى واقع الحال، على رأسها الازمة الاقتصادية والمالية التي تفاقمت في 2020، ما دفع العديد من الفنانين الى الهجرة او اقله الى الاستقرار موقتا خارج لبنان، على ان يشكل الاخير مجرد محطة يقدمون خلالها عروضهم التي ينتجونها في الخارج قبل ان يغادروا مجددا الى "اوطانهم" البديلة. في

الممثلة جوليا قصار.

> **جوليا قصار: الثقافة لا تموت بك تستوحي من المعاناة التي نعيشها**

هذا الاطار، يمكن مثلا ان نذكر مؤسس "مهرجان الرقص المعاصر" عمر راجح الذي استقر في فرنسا بعدما كان قد اطلق المهرجان الشهير محولا بيروت الى عاصمة للرقص المعاصر في العالم العربي. اذ استضاف المهرجان على مدى دوراته الـ15 اهم عروض الرقص المعاصر من مختلف عواصم العالمين الغربي والعربي.

ايضا، على مستوى الافراد المبدعين، كانت بيروت تضج بعروض ومشاريع فردية اضفت القا على المشهد الثقافي والفني. مثلا، نذكر هنا الممثلة الموهوبة يارا بونصار التي باتت مقيمة اليوم في زوريخ، الى جانب فنانين اخرين اخذتهم السبل الى المانيا وغيرها. المؤسف ان غالبية الذين غادروا هم فنانون شباب في مختلف الاجناس الابداعية، ساهموا في رفد المشهد بطاقة ودماء جديدة وحيوية وديناميكية مطلوبة لتجديد شرايين الثقافة في لبنان.

وجاءت ازمة كورونا لتزيد بؤسنا بؤسا. حصد وباء كوفيد 19 المستجد ارواح فنانين لبنانيين من العيار الثقيل، امثال رئيس المعهد الوطني العالي للموسيقى في لبنان بسام سابا عن عمر ناهز 62 عاما.

عازف العود والكمان الموهوب والمتمرس في مجاله، شارك في جولات فنية مع فيروز ومارسيل خليفة وسيمون شاهين وزياد الرحباني، كما تعاون مع نجوم اجانب من مشارب فنية مختلفة. لدى رحيله الشهر الماضي، نعاه الكونسرفاتوار على حسابه على تويتر، قائلا: "ان موهبة سابا ومهاراته التعليمية الموسيقية وحساسيته وكفاءته وتواضعه ونزاهته ستعيش الى الابد من خلال موسيقاه وشخصيته القريبة من القلب (...) خسرنا اليوم موسيقيا وانسانا رائعا متعدد المواهب والقدرات الفنية. لقد فقدنا مايسترو بكل ما للكلمة من معنى".

قبل بسام سابا، خطف الوباء الملحن والمنتج اللبناني جان صليبا، والفنان اللبناني مروان محفوظ عن عمر ناهز 80 سنة. محفوظ (اسمه الاصلي انطوان محفوظ) الذي ينتمي الى حقبة ذهبية في الفن الشعبي اللبناني، كان وجها معروفا في مسرحيات الرحابنة ثم مع زياد الرحباني، وتعاون مع عمالقة الغناء في تلك الفترة امثال وديع الصافي. وكان المطرب يستعد لاحياء حفلة في دمشق، حين اصيب بالفيروس، فلفظ انفاسه الاخيرة في مستشفى "الاسد الجامعي" في العاصمة السورية.

لم يكتف الوباء بخطف ارواح الفنانين، بل شهد لبنان ـ كما باقي العالم ـ اقفالا وتوقفا شبه كامل للمسارح والصالات السينمائية والعروض الموسيقية والفضاءات الثقافية على انواعها، الى درجة وضع صناع الثقافة، خصوصا العروض الفرجوية، في ازمة وجودية هدد باغلاق نهائي لفضاءات مسرحية نتيجة الازمة الاقتصادية التي جرها الاقفال.

في اختصار، كأننا نقف على اطلال وطن في زمن انهيار كل شيء بدءا من الاقتصاد وصولا الى المجتمع. فهل يمكن القول ان الثقافة ايضا دخلت في موجة الانهيارات هذه؟

سؤال طرحته "الامن العام" على ممثلين مسرحيين، مع هاجس الابقاء على النبرة ◄

نقطة على السطر

لثقافة تقاوم... رقميًا

كثيرة هي الافلام والمسرحيات والاعمال الابداعية والروايات والشهادات التي وثقت لاهوال الحرب العالمية الثانية. معظمها جاء بعد ان انجلى دخان المعارك، وتوقفت طاحونة الموت. لكن هناك عدد من الروائع التي ابصرت النور في قلب الدوامة. واذا استعدنا الحصيلة الثقافية لسنوات الحرب الاهلية في لبنان، سنجد انها شهدت فورة في الابداع، وحركة النشر، والانتاج المسرحي والسينمائي، وخصوصا الموسيقى والاغنية البديلة. الصحافة الثقافية. تلك السنوات المرة، السوداء، كانت ايضا استثنائية وخصبة من منظور الفن والادب. ذلك ان الحرب الاهلية على بشاعتها ـ بحكم ما شهدته من همجية وشراسة وعنف وحقد ـ كانت ايضا خصبة بالمُثُل والمشاريع السياسية واحلام التغيير. هناك طبعا تفسير اخر، واهم: الثقافة هي وحدها القادرة على مواجهة الموت، والتغلب على التعصب والحقد واليأس والاحباط...

اليوم تبدو الظروف مختلفة في لبنان. اذ ان الازمة تكاد تكون وجودية وكيانية. خطورة المرحلة ليست لا عسكرية ولا امنية فقط، ولا سياسية حصرا، بل هي خصوصا صحية واقتصادية ونفسية. تواشجت الانهيارات الاقتصادية، وكارثة المرفأ، مع كابوس عالمي هو جائحة كوفيد 19، علما ان الوسائل الدفاعية ما زالت قليلة في مواجهتها... كل ذلك كاد يضرب لبنان بالتصحر الثقافي، محولا بيروت عاصمة الثقافة العربية ارضا يبابا.

بين الافلاس والجوع وشبح الموت والخوف من المستقبل، الحجر والاقفال والتعبئة العامة ومنع التجول احيانا، اين يقف المبدعون؟ كيف يجدون كلماتهم، الوانهم، صورهم... كيف يصوغون خطابهم الفكري والفني؟ كيف يلاقون جمهورهم؟

طبعا لا نتحدث هنا عن الاغنيات التي "فقست" بلمح البصر، وهي ترفيهية وتفريغية، وعمرها قصير غالبا، لا تترك الا اثرا موضعيا عابرا. السؤال يطاول حركة ثقافية شاملة، مهددة بالانحسار والموت. وكانت قد دخلت في مدار الازمة، قبل 17 تشرين وكورونا وانفجار المرفأ. ذلك ان الامكانات المادية شحت في هذا القطاع، والجمهور ابتعد عن الصالات والمسارح والمكتبات والغاليريهات، والاماكن الثقافية بدأت تغلق ابوابها وتعلن افلاسها... عدد كبير من الفنانين والكتاب، الشباب او المخضرمين، فضل طريق الهجرة. كثيرون قبعوا في منازلهم محبطين، عاجزين عن التأليف. فهل تسدل ستارة النهاية على مدينة كانت مسرح النهضة ومختبر الحداثة العربية؟

لحسن الحظ جاءت بوادر الانتفاضة، والتمرد على الواقع الرمادي، من طريق العالم الرقمي والافتراضي. كادت الحياة الثقافية، من عروض ولقاءات وحتى مهرجانات، تنتقل الى العالم الافتراضي، اسوة بما يشهده العالم بأسره. مئات الاسماء المعروفة في شتى المجالات رفعت الصوت عاليا، لتقول نحن هنا مستمرون، وانتجت وقدمت اعمالها لجمهور كان ايضا هنا، يتضامن وينتظر. المهم ان نصمد ونتجدد ونواصل ابداعنا وتفاعلنا مع الحياة، يقول اهل الابداع والثقافة اليوم.

طبعا لا بد من ضخ اموال كثيرة للحفاظ على الفضاءات والبنى التحتية والمهن والمؤسسات. مطلوب انقاذ "اقتصاد الثقافة". في انتظار ذلك، فان العالم الرقمي هو "سفينة نوح" المعاصرة التي التجأت اليها الثقافة اللبنانية، ريثما ينبلج عالم ما بعد الطوفان.

سمير مراد

التفاؤلية والنظرة الايجابية. ففي مقابل هذه المشهدية السوداء، شهدنا في الفترة الاخيرة حلولا بديلة تحايلت على الازمة الصحية والاقتصادية. صمود ثقافي رأينا تجلياته على الشبكة العنكبوتية من خلال عروض موسيقية وفنية، وبعدها شهدنا اعادة افتتاح فضاءات لاستقبال عروض مسرحية مثل عرض "عليهم" لالكسندر بوليكيفيتش الذي قدمه في كنيسة القديس يوسف في مونو. عرض راقص استُلهمت فكرته الاساسية من زمن الانهيار الذي يعيشه لبنان. فعلى مدى اربعين دقيقة، قدم الفنان اللبناني عرضا نهل من تجاربه الشخصية في الاشهر الاخيرة كفقدان والده، وصولا الى انفجار مرفأ بيروت وازمة كورونا. اضف الى ذلك مسرحية "اكره المسرح، احب البورنوغرافيا" (50 د) لفرقة "زقاق" الذي قدمته في "مسرح المدينة" في منطقة الحمرا بسبب تضرر فضائها الخاص الكائن في الكرنتينا جراء انفجار مرفأ بيروت.

لا بد من التوقف هنا عند الروح التضامنية العظيمة التي برهن عنها صناع المسرح والفن في لبنان من خلال اطلاق حملات دعم مالي للمسارح والفضاءات الثقافية المهددة بسبب كورونا وانفجار مرفأ بيروت. وسط كل هذه المبادرات، لا يمكن القول ان لبنان الثقافة يحتضر او يلفظ انفاسه الاخيرة، فالصمود والمقاومة والتحدي سمات رافقت المشتغلين في الفن والثقافة، لان المدينة التي لا تنتج ابداعا هي المدينة الميتة حقا. الثقافة هي الوسيلة والطريقة التي تتفاعل فيها الشعوب مع العالم والمحيط والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تختبرها. يمكن القول ان بيروت ما زالت مدينة حية رغم كل المصائب التي هطلت عليها في عام 2020. وهذا ما توافق عليه استاذة مادة التمثيل في الجامعة اللبنانية في معهد الفنون الجميلة الممثلة جوليا قصار. قصار التي واكبت كبار المخرجين المسرحيين والسينمائيين والزمن الذهبي للمسرح اللبناني، ما زالت تعتصم بالامل رغم كل شيء.

تقول لـ"الامن العام: "ارفض رفضا قاطعا طرح موت الثقافة في الوقت الحاضر. اولا، لم يؤثر وباء كورونا فقط على الثقافة في لبنان، بل طاول تأثيره الثقافة في كل بقاع الارض، عدا الفاجعة الكبيرة التي عشناها وما زلنا نلملم جروحنا (انفجار مرفأ بيروت) اضافة الى الازمتين الاقتصادية والسياسية، هناك كل هذه العوامل مجتمعة. لكن المهم الان ان نقف وننهض مجددا كمجتمع وافراد. الاهم ان الثقافة لا تموت، بل تستوحي من كل شيء، خصوصا من المعاناة التي نعيشها، والدليل انه هناك الكثير من الفنانين والمبدعين الذين استمروا في تقديم العروض والانشطة عبر فايسبوك ووسائل متعددة حتى بعض المسارح ظلت مفتوحة. الحياة تستمر، وفي رأيي ان السؤال الاهم اليوم هو: كيف ننهض كبلد وكشعب من جديد لتخطي المحن القاسية التي نمر بها، لكن في النهاية، كما ذكرت فالثقافة لا تموت، بل على العكس، انها تتغذى من كل المشاكل والمعاناة. صحيح ان 2020 كانت سنة قاسية جدا ولم نتخط بعد الكثير من التحديات والازمات التي فرضتها علينا، لكنني لست في وارد اطلاق الاحكام في الوقت الحالي، فالكرة الارضية كلها متأثرة بالوباء الذي طاولت انعكاساته مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والصناعية والتجارية. هذه حالة لامست كل الناس، وانا اظل متفائلة طالما لدي نفس وقلب ينبض، فانا سابقى متفائلة، خصوصا ان لدينا تجارب ابداعية تبصر النور على صعيد المسرح والتلفزيون والسينما رغم كل شيء. هناك استمرارية وحب للبقاء والصمود، وانا ارفض اي نبرة تشاؤمية حيال ما يجري. انها محنة ستمر عاجلا ام عاجلا، وعلى امل في ان تكون السنة الجديدة حمالة للخير والبركة والامل".

"رفيق علي احمد: الناس يحتاجون الى تأمين القوت اولا ومن ثم يتوجهون الى الفن"

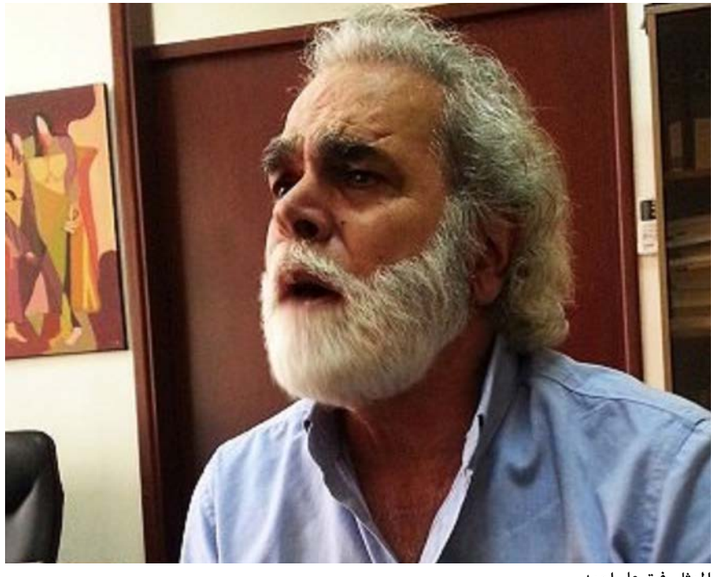

الممثل رفيق علي احمد.

من عرض الكسندر بوليكيفيتش "عليهم" الذي استلهم زمن الكوارث.

حين نفتح سيرة الوضع امام الممثل المسرحي رفيق علي احمد، يتلقفنا بعبرة من التاريخ. يقول لـ"الامن العام": "يحكى ان ابا جعفر المنصور بعدما تسلم الحكم، كان يومها الطاعون متفشيا بين الناس. توجه ابوجعفر الى العامة قائلا لهم: ها قد وُلِيت عليكم بعدما انحسر الطاعون. فقام احد الموجودين قائلا له: ان الله رحيم، لا يبلينا بك وبالطاعون. لكن ويالالسف الشديد، يبدو ان قدرنا اننا بلينا بالكورونا وبهذه الفيروسيات المسماة حكاما. ملوك الطوائف في هذا البلد هم كالسوس الذي يدخل في عرق الشجرة. نخرونا ونخروا هذا الشعب، وحولوه الى مجتمعات طائفية. لنقل ان جذع الشجرة هو هذا الوطن، وهذا السوس نخر جذع الشجرة حتى صار خاويا لا يصلح حتى لنار موقدة. واذا كنا سنتكلم عن الثقافة، فيجب ان نتحدث ايضا عن الاقتصاد. سرقوا الاموال ولم يتركوا فلسا واحدا مع احد والمسرح او الفن او الادب يولد في البدء كفكرة، لكنه في حاجة لاحقا الى مال كي يتحول الى مادة، والى صناعة ومشروع يتفاعل معه الناس. والحصيلة ان لدينا كورونا، وتباعدا اجتماعيا، وتشتتا اجتماعيا في هذا الوطن، كان مناسبة مئوية لبنان الكبير كشفت عراء النظام اللبناني الطائفي وهذه الديموقراطية الطائفية الكنائية عن كذبة. سيطر ملوك الطوائف على جماعة معينة، ودمروا الاقتصاد والانظمة كلها من تعليم وغيره، وبات الناس يشتهون اللقمة. هناك مثل شعبي يقول: الفرن بُني قبل المعبد. الناس يحتاجون الى تأمين القوت اولا، ومن ثم يتوجهون الى العبادة، والى الثقافة والابداع والفن والانشغالات الاخرى".

يتابع: "ويالالسف الشديد، ففي سنة 2020، جاءت هذه الازمة التي نعيشها اليوم، كخلاصة لهذا النظام الذي فكك هذا البلد. فليس هناك انتاج ولا ابداع، فيما ساد التباعد على كل المستويات. وعليه، اذا لم يكن هناك نظام اجتماعي سليم، واقتصاد سليم، فالثقافة هي نتيجة لكل هذا الخلل. وجبران يقول انه لو كان صوتي قويا لصرخت: اواه، والف اواه على حالنا وعلى حال البلد. واود ان اشير هنا الى انني لا اوجه اللوم فقط الى الطقم السياسي الفاشل في هذا البلد، بل ايضا هناك عتب كبير على هذا الشعب الذي دُجن، وجُهل وتحول الى جماعات طائفية. لذا لا يمكن ان تكون هناك ثقافة بشكل عام، وتحديدا في ما يتعلق بالمسرح الذي يحتاج الى ممثل على الخشبة والى حضور في الصالة يتفاعل مع العرض. وسط كل هذه السوداوية التي نعيشها، يبقى هناك بريق امل، واعتقد واؤمن بأنه امل ساطع يتمثل في ما حصل في الجامعات اللبنانية، وامل في ان يكون الشباب اللبناني قد تنبه وقرأ تاريخ هذا الوطن، وتيقظ الى ان بناء الوطن لا يمر بالطوائف والطائفية. امل في ان يعمل هذا الشباب من اجل مجتمع مدني، والامل كل الامل في هؤلاء الشباب ان يبنوا وطنا لهم وللاجيال القادمة".

س. م